اللغة العربية ومواكبة العلوم الحديثة

الدكتور مروان المحاسني

يقف الوطن العربي على عتبات القرن الواحد والعشرين في مواجهة حاسمة مع ذلك السيل المعرفي الذي تغذقه الحداثة على عالم اليوم وبخاصة في مجالات العلوم التي تفرعت إلى مسارات عديدة متشعبة يتابع كل مسار منها تعميق جذور العلم الذي انفرد به.

إنها حركة علمية متسارعة تسبر ما بقي خافياً من أسرار الكون وتعيد النظر في منجزات القرن العشرين تلك المنجزات التي كانت تمثل انفجاراً معرفياً مبهراً في مجالات لم تُطرق من قبل كالمعلوماتية والأجزاء المتناهية الصغر في تكوين الذرة ودقائق بنية الكائن الحي وكل ما يتعلق بالتعرف على عناصر الفضاء الكوني.

وقد رافق ذلك تطور سريع في العلوم الإنسانية وظهور نظرة جديدة إلى فروع كانت مستقرة بعد إصداراتها المتميزة خلال القرن العشرين: كعلم الاجتماع وعلوم اللسان والدراسات الأدبية في النقد وتحليل الخطاب، هذا إلى جانب ما ظهر في مجالات العلوم الاقتصادية من توسع وتعمق.

إن هذه التيارات الفكرية الحديثة التي تغوص في بحور كان قد سبر أغوارها العلماء والباحثون في القرن الماضي تشكل كماً ثقيلاً لم ينته مؤلفونا من نقله إلى العربية لتيسير الاطلاع عليه من قبل المثقفين العرب.

وإذا أضفنا إلى كل ذلك ما تواجهه مجتمعاتنا من صعوبات في اللحاق بالتطورات التقنية الحديثة المتسارعة التي دخلت حياتنا واستقرت في بيوتنا ونحن لما نستوعب الأسس العلمية التي بنيت عليها أمكننا إدراك مقدار التحدي الذي تواجهه مجتمعاتنا في مجالات شتى.

إن عالمنا العربي تسكنه مجتمعات انطوائية لا تحتل القراءة مركزاً محورياً في حياتها وهي تعتز بثقافة أثيلة لم تحاول تحليل منطلقاتها لتستفيد منها في مواجهة تحديات العصر. هي مجتمعات مازالت تنظر إلى ماضيها ولا تخطط لمستقبلها في عالم سريع التطور تحركه ثقافات تطغى على الثقافات الساكنة معتمدة حركيتها وطموحاتها.

هي مجتمعات مفتونة بمنجزات حداثة لا تفكر في مضاهاة أي جزء من إنتاجها حتى إذا ما انبرى بعض الأفراد لمحاولة فهم ما تغدقه الحداثة على مجتمعهم وانخرطوا في الطريق الموصلة إلى المشاركة في الحركة العلمية العالمية وجدوا أنفسهم منعزلين في مواجهة تلك اللجة العارمة لا تساندهم مجتمعاتهم في سعيهم لإخراجها مما أصابها من ركود بل يجدونها مستكينة تجرفها تيارات الحداثة وتستقطبها مراكزها العلمية المتميزة.

ولابد من القول إن اللحاق بالحداثة الغامرة لعالم اليوم لا يقتصر على الاستفادة من منجزاتها بل إن الدخول في الحداثة لا يكون إلا عن طريق إدراك الأسس التي بنيت عليها بل النفوذ إلى الفكر الصانع لها ليتسنى لنا من ثمة المشاركة في بناء مستقبلها.

وإن اللغة هي مفتاح الوصول إلى المعرفة ولذا فهي تحتل موقعاً محورياً في حياة الإنسان تربطه بمجتمعه وتحتوي على خلاصة خبرات وتراث كل مجتمع. فاللغة ليست أداة للتعبير فحسب، إنها وسيلة التفكير بل هي خلاصة الفكر.

ولقد حُمِّلت لغتنا عبءاً ضخماً في النصف الثاني من القرن العشرين حين برزت مجالات علمية جديدة لا قبل لها بها.

ذلك أن اللغة العربية بقيت جاهزة لتقبّل متطلبات العلوم الأساسية كافة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية وكان ذلك بفضل الجهود المبذولة في تدريس العلوم باللغة العربية، وهو أمر تفخر سوريا بأنها الرائدةُ فيه، هذا بالإضافة إلى ما قدمه الأفراد في العالم العربي من جهد

حقيقي في مجالات ترجمة العلوم ومتابعة الحركة العلمية العالمية.

إلا أن انبثاق علوم جديدة كالدراسات في دقائق تكوين المادة، أو دراسة الخلايا الجذعية، أو كل ما نتج عن استثمار الطاقة الذرية وغيرها من البحوث الحديثة قد أدى إلى تراكم معرفي يحتاج نقله إلى العربية مجهوداً كبيراً لا طاقة للأفراد على إنجازه. بل لابد من مؤسسات متخصصة ترفد الطاقات الفردية الهزيلة التي تحار في مواجهة تيارات العولمة، ولكنها تُستثار وتَنتفض لتتصدى لمحاولات تغليب اللغة العالمية على لغتها القومية.

هذا لا يعني أن اللغة العربية قد تعطلت وبدا عجزها عن مسايرة الركب العلمي العالمي، وأن إقصاءها عن متابعة نقل العلم هو الحل الأمثل الذي ينقل الاهتمام إلى التعمّق في تعلُّم اللغات الحاملة للعلوم ويُغني عن مجهودات النقل إلى العربية.

إن نظرة كهذه تنتهي إلى إسقاط حق الجماهير العربية في التعرف إلى مجريات الأمور في ميادين العلم حين يكون عرضها بلغتها الأم، منكرة بذلك مجهودات التعريب التي قامت في العالم العربي طيلة القرن العشرين من أجل تسهيل الوصول إلى إدراك العلوم الحديثة واستيعاب منطلقاتها.

إن ما ذكرناه من تقصير اللغة العربية في النصف الثاني من القرن العشرين عن تعريف القارئ العربي بالتيارات الهامة المؤسسة لما يراه حوله من إنجازات تقنية وعلمية، هو تقصير يفسر لنا سبب عدم استفادة مجتمعاتنا إلا من فتات ما يسَّرته الحداثة. وأي تقصير أكبر من ذلك الذي أفضى إلى تلك الحيرة الوجودية التي تسيطر على العربي حين يحاول الاستفادة بشكل واعٍ مما تقدمه الحداثة من منجزات علمية وتقنية، فيقف حائراً وعاجزاً أمام الآلة أو الجهاز الحديث طالباً أن توفَّر له الشروح والتعليمات بلغته القومية، وهو أمر يتأخر دوماً لأن لغته ليست جاهزة لتقديم ذلك قبل تحديد المقابل العربي لكل مصطلح علمي أو تقني.

ومشكلة مواجهة الحداثة ليست محصورة في مجال محدد هو إيجاد المقابلات العربية للمصطلحات العلمية والتقنية، أي أسماء القطع والأجزاء التي يتألف منها الجهاز، بل إن الأمر أعمق من ذلك إذ لابد من الوصول إلى ما يكمن وراء ذلك الإنجاز من فكر فعَّال ومنتِج حتى يمكن لنا أن نتفهم محرِّكات الإبداع وشروطه.

إنها فجوة حضارية مستحكمة في مجالات العلوم والتقانات تفصلنا عن العالم المتقدم. وهي فجوة آخذة في الاتساع ومعدل اتساعها يتناسب مع حجمها، ولذلك فهي تزداد بقانون أسِّي بفعل وجود سرعتين لتطور العلوم والتقانة: سرعة عالية في الدول المتقدمة وسرعة بطيئة في الدول النامية، ولذا فإن الفرق بين السرعتين هو حجم الفجوة.

وقد تأكد أن تلك الفجوة مرتبطة بشكل وثيق بمدى انتشار تعلُّم اللغات العالمية في مجتمعاتنا، ويبدو أن العلاقة بين ما يشاهد من فروق علمية وتقنية في المجتمعات وبين عمق تعلُّم اللغات فيها هي علاقة طردية فكلما أصبح الفرق الحضاري صغيراً كانت الحاجة إلى تعلم اللغات قليلة.

ولذا فإن الوسيلة الوحيدة للسيطرة على ما نراه من اتساع الفجوة العلمية والتقنية بين الغرب وبيننا هي اللجوء إلى حركة واسعة من الترجمة والتعريب يكون أساسَها وضعُ المصطلحات العلمية والتقنية المقابلة لتلك التي تغرقنا بها العولمة وهذا يفترض معرفة عميقة ودقيقة بلغات العلم ذات الصفة العالمية.

وبما أن المعرفة في العلم هي في الأصل معرفة بلغته أي بمصطلحاته فإن "الكتابة العلمية كتابة علائقية بين مضمون العلم وشكل العلم عموماً أو بين مفاهيم العلم ومصطلحات العلم خصوصاً" *.

* فرحات الدريسي بلاغة الخطاب العلمي العربي ص161 (تونس)

ولن نصل إلى الفهم العلمي الصائب إلا عن طريق المصطلح الدقيق والمعنى الواضح، وهذا يعني وجود حاجة ملحة إلى جهد مصطلحي متكامل يحيط بكل دقائق العلوم المختلفة، في لغاتها الأصلية، من أجل الوصول إلى تنظيم لغوي ومصطلحي ينتهي إلى تأكيد التزاوج بين اللغة والفكر عموماً. وهذا التزاوج هو الذي يسمح بإخراج العبارة العلمية في المستوى الفني الذي يرفع كل شكل من أشكال اللبس والإغماض، بالاستناد إلى تسلسل منطقي ينير الطريق إلى الفهم والاستيعاب.

وهذا يؤكد ضرورة وجود وعي مصطلحي عميق عند القائمين على نقل العلوم الجديدة. وهو وعي يتطلب تحديد الرؤية العلمية قبل كل شيء، أي الوصول إلى معرفة دقيقة للعلم المنقول، بالإضافة إلى معرفة عميقة لطاقات اللغة العربية ولمقاييسها حتى يمكن تسخير جميع المدارك العقلية والإمكانات اللغوية في إبداع المصطلحات المناسبة.

وهو عمل دؤوب يرفع من شأن لغتنا ويفتح لنا أبواب الاستفادة من الحضارة ثم المشاركة في بناء مستقبلها. فالحضارة واقع ملموس في الحياة المدنية وفي الفكر والثقافة والممارسة والسلوك وهي تعتمد اللغة حاملاً وناقلاً لجميع محتوياتها.

ولذا فإن اعتماد الترجمة والتعريب هدفاً استرجائياً (استراتيجياً) يضع العلوم في متناول طلابها بعد تطويعها، ويدخلها إلى وجدان الأمة، هو الوسيلة المثلى لنتخطّى بمجتمعاتنا وهدة التخلف ومرحلة الاضمحلال التقني والعلمي.

إن الثقافة العربية الإسلامية تفخر بأن ما قام به علماؤها الأولون من ترجمة للنصوص الإغريقية والسريانية كان بحق مرتكزاً بُنيت عليه الثقافة الأوربية وانتهى بها إلى ما هي عليه اليوم.

إلا أن ما يسمى حركة الترجمة والتعريب التي بلغت أوجها عند تأسيس بيت الحكمة في بغداد لا يمكن أن تقارن بما يواجهنا اليوم حين نتطلع إلى نقل العلوم الحديثة إلى لغتنا القومية.

فالفرق واضح وكبير إذ كان الأولون أمام تراث ثابت ومستقر ومعظمه من منشأ إغريقي تبلور أبرز ما فيه في القرن الرابع قبل الميلاد في أعمال إيبوقراط وأرسطو، وهي التي تمثل قمة الفكر القديم في ميادين الطب والفيزياء والعلوم الطبيعية إلى جانب الفلسفة، وهي تختصر ما وصل إلى الإغريق من علوم مصر وبابل والشرق الأدنى.

لقد تمكن الإغريق من فصل العلوم عن الفلسفة وعن المعتقدات الخرافية، ومن إعطاء كل علم ذاتيةً منفردة في تفسيرها وتطبيقها. ثم انتقل هذا الرصيد العلمي المتميز إلى مجموع منطقة البحر الأبيض المتوسط مدفوعاً بزخم فتوحات الاسكندر التي وحّدت الشرق تحت سيطرته. وبذلك انتشرت الحضارة الهلّينية التي أخذت تستوعب ما في الشرق من علوم متراكمة منذ ألوف السنين، بعد سطو الاسكندر على مكتبة كسرى أنوشروان في أكباتان ونقل كتبها * إلى أثينا لترجمتها، وهي الكتب التي كانت مراكز مرو وبخارى ونيسابور قد قامت بتضمينها نصوص الأفستا Avesta وكتاب المواليد Deukarad الزرادشتية بعد ترجمتها من الفارسية القديمة إلى الفهلوية، وقد انتهت جميعها إلى مكتبة الإسكندرية الكبرى التي أسسها بطليموس الأول سوتر.

وقد بقي إشعاع مكتبة الإسكندرية حتى مطلع القرن الخامس الميلادي حين دُمرت (عام 400م) بتأثير حركات تعصبية تتنكر للعلوم لتعود إلى الغيبيات، ما أدى إلى تراجع الفكر العلمي والابتعاد عن العقلانية وتضاؤل الفكر البحثي الإيجابي أمام الفكر الغيبي العاطفي الذي تسيطر عليه الغنوصية (العرفانية). وحين انفرط عقد الإمبراطورية الرومانية الغربية تحت وطأة الغزوات البربرية الجرمانية (قوط، فاندال) والآسيوية (الهون) تم تقويض الحضارة الإغريقية الرومانية ولم يبق سوى مكتبات رودس وبرغاما وإنطاكية بعيداً عن تأثير تلك الغزوات وهي المكتبات التي كانت تتنافس مع مكتبة الإسكندرية. فما وصل إلى العرب كان تراثاً جامداً مستقراً تطرّق إلى مجالات مختلفة ليجعل منها علوماً مستقلة

---

* آرثر كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين ص599 ترجمة يحيى الخشاب الهيئة المصرية للكتاب 1998

ولو أن القائمين على دراستها كانوا يجمعون المعرفة في الطب إلى دراسة الفيزياء والكيمياء وإلى علم النجوم وغيرها.

وقد واجه المترجمون الأوائل صعوبات جمة في إيجاد المقابلات العربية للمصطلحات العلمية الإغريقية التي أتاهم عدد كبير منها عن طريق اللغة السريانية. فاعتمدوا بعضها بجعلها عربية مقبولة كالإقليم والإسطرلاب والفلسفة بينما قاموا بوضع مقابلات عربية صريحة حين وجدوا في لغتهم ما يوافق طلبهم كمصطلح التشخيص مقابل diagnosis، والعناصر البسيطة مقابل الاسطقسات، إلى غير ذلك مما هو واضح في جميع العلوم التي وصلت إليهم.

وهذا ما سمح لهم أن ينتقلوا في مرحلة تالية من مجرد الترجمة إلى ما هو تعريب حقيقي أي إيصال المادة العلمية إلى القارئ العربي بعد تطويعها وجعلها موائمة لثقافة المجتمع الذي يستفيد منها. ويكون ذلك حين يتفاعل علماء الأمة مع جوهر تلك العلوم معتمدين لغة سلسة ينساب فيها الفكر انسياباً فتصبح تلك المادة العلمية المعرَّبة أساساً لحضارة الأمة، إذ لاشك بأن الوثاق الذي يربط اللغة بالحضارة عبر المسيرة الإنسانية هو وثاق وطيد.

وفي أية حال فإن الأسلوب الذي اتبعه حنين بن اسحق يؤكد أهمية الفهم أساساً للترجمة ووصولاً إلى التعريب. فقد أقام حنين سنتين في بيزنطة موفداً من قبل المأمون، وقد كان الرشيد أيضاً أرسل إليها يوحنا بن ماسويه، لتعلم اللغة اليونانية. وكان حنين يحفظ الياذة هوميروس، ثم أضاف إلى ذلك أن لزم الخليل بن أحمد "حتى برع في اللسان العربي وأصبح أعلم أهل زمانه باليونانية والسريانية والفارسية فضلاً عن العربية" *

وكان حنين يترجم من اليونانية إلى السريانية ويقوم ابنه اسحق وابن أخته حبيش بالنقل إلى العربية في المراحل الأولى ثم انتهى الأمر بحنين أن أصبح ينقل العلوم من اليونانية إلى العربية.

---

* فوزي المناوي أزمة التعريب ص136 مؤسسة الأهرام 2003

وهذا مسلك امتد إلى معظم العلماء المسلمين إذ كان البيروني يتقن العربية إلى جانب الهندية والفارسية واليونانية. ومن المعروف أن أشهر المترجمين الأوائل كابن البطريق وابن ماسويه وثابت بن قرّه ومجموع مدرسة جند يسابور كانوا أفراداً ثقافتهم يونانية وحياتهم سريانية ومحيطهم عربي. فكان مجموع هؤلاء بمثابة الأثافي التي قامت عليها حضارة جديدة هي الحضارة العربية الإسلامية معتمدة الأسس الثقافية والعلمية التي قاموا بتوفيرها.

ولقد كانت الترجمة في الأصل مسلكاً حضارياً في الهلال الخصيب بغية ارتشاف المعرفة من الفكر اليوناني القديم ومن الثقافة الفارسية (اللغة الفهلوية) إذ كانت حركة الترجمة حركة اجتماعية فكرية. وكانت روح الترجمة سائدة في تلك البقعة من العالم للتعرف على التغيرات الحضارية والثقافية وبخاصة في سوريا والعراق، موطن حضارات تغيرت لغاتها من أكدية إلى آرامية إلى يونانية وسريانية وصولاً إلى اللغة العربية. وهكذا فقد تعامل أولئك المترجمون مع مجموع نتاج الثقافات الشرقية القديمة إذ أنهم ورثوا الترجمات من اليونانية إلى السريانية بعد أن أغلق الإمبراطور زينون مدرسة الإسكندرية في بداية القرن السادس للميلاد ما جعل المعلمين اليونانيين يلتحقون بالمدارس المشرقية في إنطاكية والرها ونصيبين التي بقيت تدرس العلوم والطب والفلسفة.

أي أن العرب الفاتحين وجدوا في بلاد الشام بيئة ائتلفت الترجمة واستوعبت الكثير من معطيات تلك الثقافات التي تعاقبت على بلاد الشام وبلاد الرافدين، وهي بيئة نهلت من الثقافة الإغريقية معظم تظاهراتها المادية والفنية. وقد كان عدد غير قليل من المثقفين في تلك البلاد ملمين باللغة العلمية السائدة في ذلك العصر وهي الإغريقية، ما جعلهم ينقلون مضمونها إلى لغتهم السريانية الدارجة، وارثة الآرامية التي كانت لغة الثقافة والدولة من بلاد فارس إلى شواطئ المتوسط.

وأما نحن فقد ابتعدنا طوعاً عن تعليم اللغات الأجنبية في العصر الحديث وقصرنا ذلك على المهتمين بتلك اللغات وبآدابها، مبتعدين عن أي ارتباط بين اللغة العربية ولغة العلوم الحاملة

لمرتكزات إبداعات الحداثة.

ونحن اليوم نجد أنفسنا في مواجهة كم كبير من المعلومات المتفجرة تنثرها قنوات الاتصال المتشابكة، فتنتظم في علوم جديدة تتفرع عنها تخصصات جديدة تنفرد بحيز أصغر فأصغر في كل علم كالفيزياء والكيمياء والطب وغيرها، هذا إلى جانب علوم مبتكرة، حديثة بامتياز، كعلم التحكم cybernétique وعلوم المعلوماتية وعلوم الفضاء. وهي علوم تتطلب مستويات عالية من المعرفة اللغوية للوصول إلى فهم مقوماتها في لغاتها قبل النظر في إنتاج المصطلحات التي يتطلبها نقلها إلى العربية.

وأما سلاحنا في هذه المعركة الضارية فلغة عريقة عظيمة تحمل تراثنا الفكري وتجربتنا الحضارية وتعكس حقيقة مجتمعنا، وقد انطلقت في العصر الحديث مجلِّية في معظم المجالات المتعلقة بالفكر والأدب والفلسفة. ولكنها مازالت تجدّ وتجهد في استدراك ما فاتها في بحور العلم الزاخرة، منذ قرون عديدة بقيت فيها محصورة في مجالات الدراسات التقليدية في الدين والبيان واللغة، حتى نعتت الثقافة العربية بأنها ثقافة لفظية زخرفية. ولم تتطرق اللغة العربية إلا في مطلع القرن العشرين إلى نقل العلوم والتقانات الحديثة في محاولة للحاق بمجالات البحث العلمي الآخذة بالاتساع في كل يوم.

فإذا كان العلماء الأوائل من العرب المسلمين قد برزوا بقدرتهم على التميُّز في معظم فروع المعرفة، حين كان العالِم في آن واحد فيلسوفاً ورياضياً وفلكياً وطبيباً وكيميائياً ومؤرخاً وشاعراً، فإن جيلنا لا طاقة له على تجاوز فرع صغير من علم فرعي قد استطاع أن يستوعب دقائقه ليحاول نقلها إلى اللغة العربية بغرض التدريس أو لغاية نشر العلم في مجتمعه. فلا يكون ذلك إلا بجهد كبير لضيق ما بين يديه من مصطلحات جاهزة في اللغة العربية، وعليه بالإضافة إلى ذلك أن يكون ملماً بأساليب العلم الحديث، وواقفاً على جميع ما طرأ عليها من تبدلات، كي

يستطيع الولوج إلى ما وراء النص ويحاول توضيح ما يجده فيه من غموض مستنداً إلى معرفة عميقة للغة التي يريد النقل منها. وهذا ما يسمح له عندئذ باستخلاص النتائج الصحيحة ويفتح الباب واسعاً أمام بحوث علمية تستند إلى معرفة علمية دقيقة بما يتيح له الانطلاق إلى المشاركة في الحركة العلمية العالمية.

ونحن اعتماداً على توضيح هذا الأسلوب في مقاربة العمل في الترجمة نستطيع أن نفهم كيف أن الترجمات التي قام بها العرب المسلمون لما وصل إلى أيديهم من مؤلفات علمية ضمت معظم العلوم السابقة لعهدهم قد أفضت لديهم إلى ظهور فكر علمي مستقل قادر على مناقشة محتويات هذه الكتب والتفريق بين أغراضها، وهكذا فقد كان ابن سينا أول من ميز بين العلوم النظرية والعلوم العملية (في كتابه أقسام العلوم العقلية). ويمكننا القول بأن ذلك العصر كان عصر غليان فكري، وقد استطاع الفكر العربي فيه أن يتجاوز التناقضات الواردة في تلك الكتب ليُخرج منها ما يوصل إلى ظهور الأسس التي استندت إليها الطرق التجريبية في العلوم، إذ إن ما جرى هو إعادة النظر في مبادئ تلك العلوم، ومن ثم اتباع أساليب التفكير العلمي للوصول إلى فهمها والاعتماد عليها أساساً للبحث.

إن هذا العمل الفكري التحليلي لا يمكن فصله عن البحوث التي قام بها المترجمون في بحور المفردات العربية من جهة أخرى ليتمكنوا من انتقاء الألفاظ التي تناسب الأغراض المدروسة، بعد أن قاموا بتدقيق وحصر كل مفهوم على حدة.

ولذلك فإن المترجمين العرب والمسلمين لم يكونوا مجرد نَقَلة لمحتويات الكتب الإغريقية بل إن تمكنهم من اللغة الإغريقية، وأحياناً السريانية أو الفهلوية، قد جعلهم قادرين على التحقق من المفهوم الحقيقي الذي يحمله المصطلح، حتى يُحسنوا إيجاد المقابل له ويتمكنوا بعدئذ من إضافة ملاحظاتهم الشخصية على ما ورد في تلك الكتب. وهذا ما سمح لهم بإعادة إجراء القياسات

التي وجدوها في الكتب للتحقق من دقتها فأعادوا حساب أبعاد الكرة الأرضية وأضافوا نظرة جديدة إلى نظام بطليموس.

وبذلك فقد جمع العرب علم الإغريق إلى علم الفرس وعلم الهند وعلم الصين ليُخرجوا إلى العالم علماً طبعوه بعبقريتهم، ما جعل حضارتهم تتصف بعالمية لم تصل إليها أي حضارة قبلهم.

فمن البداهة إذن أن هذه الترجمات لم تكن لتحتل تلك المكانة الرفيعة لولا تمكن المترجمين من اللغة التي ينقلون عنها من جهة، ومن اللغة العربية بخاصة من جهة أخرى. فهي لغة استطاعوا الاستفادة من مرونتها لإيجاد مصطلحات جديدة تتسق فهماً ونطقاً مع روح العربية، وهذا ما يجعلنا نَصِف إنتاجهم بأنه تعريب وليس مجرد ترجمة إذ أنهم استوعبوا ما وجدوه في الثقافة الإغريقية ثم أخرجوه بحُلّة عربية ناصعة وكأنه من نتاج أفكارهم.

وهذا ما يجعلنا نقول إنه لا يليق بالمترجم اليوم أقل من إتقان حقيقي للغة التي يريد النقل منها، ومعرفة واسعة لتاريخها ولآدابها، إذ أن ذلك يمكّنه من المقارنة والعودة إلى الأصول من أجل توضيح المفاهيم الواردة في النصوص. فالترجمة في جميع الميادين وحتى في مجالات العلم تعالج نصوصاً تعتمد أسساً ثقافية ذات مرجعية تراثية، إذ أن اللغة العلمية ليست لغة سردية جافة تُعدِّد النقاط وتربط بين المفاهيم لتصل إلى البرهان بمقاربة تشبه المقاربة الرياضية، بل مما لاشك فيه أن اللغة العلمية فيها روح الكاتب وخياله وخلاصة أدبيات ثقافته. ومتى كان المترجم متمكناً من اللغة التي يريد تعريب نصوصها، بعد أن يستوعب محتواها المعرفي، فإن في مقدوره الاعتماد على اللغة العربية في نقل العلوم لأنها لغة رياضية بامتياز: فهي لغة انصهارية اشتقاقية تَفضُل اللغات الإلصاقية غير الإعرابية، وذلك بسبب وجود أوزان صرفية فيها لها قوة الإصهار الشكلاني (المورفيمي) الذي يوصلها إلى دقة نادرة المثال في استعمال المقاييس الصرفية لصنع المصطلح.

كما أن اللغة العربية قد تميزت بجزالة مفرداتها ومرونة اشتقاقاتها من جذورها المطواعة وقد

صقلها الإعراب بحيث توحدت مسالك النحو لها لتنتج كلاماً متناسقاً يغلب عليه الترابط الوظيفي الإعرابي بما ينير المعنى ويمنع اللبس.

وهذا ما جعل العناصر المعرفية التي تضمنتها النصوص المترجمة في تراثنا تبدو وكأنها نتاج فكر تحليلي يميل إلى الاقتضاب ويُصرُّ على صوغ المفهومات في تراكيب مصقولة يمكن اعتمادها لبِناتٍ يُشاد منها بناء واضح المعالم سواء أكان ذلك في عالم الفلسفة أو الرياضيات أو العلوم الدقيقة بما يتطابق مع قواعد القياس المنطقي الأريسطي.

هذه كانت المنطلقات التي جعلت اللغة العربية قادرة على التعبير في العلوم الدقيقة وجعلت منها مجازة سهلة لنقل العلوم وتطويرها حتى ارتقت إلى عالمية استمرت بضعة قرون.

وهذا ما يسمح لنا أن نسترسل لنقول بدحض فكرة القائلين بأن لغة العرب الفاتحين كانت لغة محصورة في مجالات الحياة البدوية فيما يتعلق بالحياة اليومية، دون الارتباط بأي فكر حضاري قبل أن يرفعها القرآن إلى ذلك المستوى الرفيع من التعبير المبني على أساس إيماني.

فإذا صح ذلك بالنسبة إلى بعض المواقع في الجزيرة العربية التي اتسمت بالبداوة فإن حواضر الحجاز وحواضر نجد كانت محطاً للقوافل التجارية التي تحمل المرّ والبخور من اليمن لتنتهي في بابل أو في تدمر مارة بدمشق والحيرة وحلب وحران. كما أن طريق الحرير في مساره من الشرق إلى الغرب كانت تحط قوافله في عدد من المدن في شمال الجزيرة العربية. وإذا أضفنا ما هو معروف من وجود قبائل عربية استقرت في الهلال الخصيب قبل ظهور الإسلام، كقبائل لخم وطيء وغسان وبكر وربيعة، أدركنا أن عرب الجزيرة تواصلوا في فتوحاتهم مع إخوة لهم كانوا مستقرين في موقع حضارات عريقة سابقة، قامت على أسس معرفية واسعة، واستحوذت على نتاج حضارات متجاورة متصلة بالهند عن طريق فارس. فهم قد ورثوا حضارات محلية أنتجتها أقوام يتكلمون بلهجات عربيات متتالية: الأكادية والآشورية والبابلية والأوغاريتية والكنعانية الآرامية.

إنها حضارات كانت تتميز بمستوى رفيع من الإنجاز في مجالات هامة كالزراعة والري، كما عرفت بتميزها في مجال عدد من التقانات المتخصصة كالزجاج والنسيج والفخار. وأشادت صروحاً معمارية مازالت تثير إعجابنا اليوم. وأكبر دليل على هذا التشرّب الحضاري ما أثبتته الدراسات اللسانية الحديثة لدى المقارنة بين اللهجات العربيات القديمة، التي يُصرّ الغرب على تسميتها باللغات السامية، وبين اللغة العربية الحاملة لثقافتنا اليوم. ويرى سوسور مؤسس علم اللسانيات أن اللغة العربية هي أقدم لغة حية في عالم اليوم وذلك لأنها تحتوي على معظم مفردات تلك اللهجات العربيات القديمة.

وقد أُجريت مقارنة بين اللغة العربية وكلٍ من تلك اللهجات في بحوث حديثة تَبين منها أن لغتنا الفصيحة تحتضن 65% من مفردات السبئية و86,2% من الآرامية و94% من الكنعانية وذلك بتحليل النقوش القديمة العائدة لبداية الألف الأول قبل الميلاد *.

فاللغة العربية التي استحوذت على لب تلك الحضارات القديمة، وأثبتت مقدرتها الفائقة حين تحدى أبناؤها بها أضخم صرح حضاري ثقافي وجدوه في الهلال الخصيب، هي لغة ما تزال قادرة على استيعاب العلوم الحديثة بعد أن استكملت نموها وأصبحت لغة رئيسة معتمدة في المجالات الدولية على جميع المستويات الثقافية والعلمية.

فالمشكلة ليست في اللغة العربية ذاتها بما لها من طاقات فنية بل هي في اختيار طرائق استثمار جزالتها في إيجاد المصطلحات اللازمة للتجاوب مع متطلبات العلوم الحديثة، حتى أنه يمكن القول بأن اللغة العربية أوسع بكثير مما هو مطلوب منها في هذا المجال.

والحقيقة أن المشكلة اليوم كامنة في ما رأيناه في القرن الماضي من إضعاف للغة العربية ناشئ عن جمود طرق تعليمها التي تتسم بالحرفية والجفاف، بحيث نرى الطالب الجامعي الذي

---

* محمد بهجت قبيسي ملامح في فقه اللهجات العربيات ص92 دار شمأل 1999

أنهى دراسة العلوم باللغة العربية يعجز عن تسطير خطاب في موضوع عام، أو حتى في موضوع علمي محدد، بلغة فصيحة صحيحة قادرة على إيصال أفكاره بدقة إلى القارئ.

وكذلك فإن مستوى تعليم اللغات الأجنبية في هيكل التعليم العام أخفض من أن يتيح أي فرصة للشباب أن يتطلعوا إلى المشاركة في ردم الهوة الآخذة بالتعاظم بيننا وبين الحضارة الغربية.

فإن اكتساب محتوى أي حضارة نريد الأخذ عنها يتطلب مرحلة أولى هي مرحلة الانغماس في لجة تلك الحضارة أي تناولها من خلال إنتاجها الفكري. وهذا الانغماس لا يكون إلا بالاعتماد على معرفة عميقة لتلك اللغة الحاملة للحضارة، معرفة تشمل تاريخها وآدابها. فإذا اكتمل هذا الانغماس وأنتج تراكماً معرفياً واسعاً أمكن للأفراد أن يدخلوا مجالات البحث التي تمكنهم من سبر أغوار ما تحمله تلك الثقافة لاستنساب ما يصلح لسد حاجات مجتمعهم. ويكون ذلك بعد تحليل محتوياتها وتوضيح الترابط بين عناصرها للوصول إلى فهم دقيق لكل نص يراد دراسته؛ ومرحلة البحث هذه هي التي تحدد الأولويات في انتقاء ما يصلح ترجمته في كل مجال من المجالات.

وإن مرحلة التحليل والتوضيح هذه هي التي تجعل عمل المترجم يرقى إلى مستوى التعريب بدل الاكتفاء بنقل حرفي للنص، أي أن العمل عندئذ يصبح إفراغ المادة العلمية في قوالب عربية تساعد على فهمها دون المساس بأصالتها الفكرية.

ومتى توفر هذا المستوى من التعريب انفتحت مسارات البحث العلمي عند العاملين، كل في مجاله، بحيث نجدهم يدخلون مرحلة الإبداع بعد هضم العناصر المعروضة واستبطان مرجعياتها وهذا يوصلهم إلى محاكاة ثم تجاوز ما بين أيديهم أي تحدي تلك المعطيات بإيجاد أفضل منها.

وخلاصة القول إننا في مرحلة حاسمة من تطورنا الحضاري، وهي تُلزمنا بإيجاد الحلول التي تتيح لنا فرصة تضييق الفجوة الحضارية بيننا وبين الغرب، وهي فجوة آخذة بالاتساع إذ إننا نواجه انفجاراً

معرفياً ينشر ألوف المصطلحات في مجالات مختلفة بعد الطفرة العلمية الخارقة التي تميز بها الغرب في النصف الثاني من القرن العشرين.

هنالك من يقول أن قد اتسع الخرق على الراقع ولا مجال للحاق بالحضارة الغربية التي تتفجر ينابيعها في كل يوم فاتحةً أبواباً جديدة في كل فرع من العلوم.

لكننا نرفض أن يدخل القنوط إلى نفوسنا، معتمدين في ذلك ما نعرفه من حيوية أمتنا التي تجاوزت معوقاتٍ كثيرةً في مسارها الحضاري، إلا أنه يتوجب علينا تحديد المرتكزات التي نتطلع إلى بناء مستقبلنا عليها في مجال مواكبة العلوم الحديثة.

فلابد أولاً من الإقرار بأن العمل يتجاوز طاقة أي إنسان بمفرده مهما يكنْ تعمقه في فرعه من العلم إذ كيف له أن ينتج لوحده المقابلات لذلك السيل من المصطلحات التي تطرحها الحركة العلمية العالمية بوتيرة متسارعة؟

وفي أية حال فإن أي مجموعة تريد أن تتصدى للنهوض بهذه المهمة في فرع من فروع العلم الحديث لابد لها من تحديد مستوى الخبرات الذي يجب أن يتوفر في الأفراد المشاركين في هذا الإنتاج.

ونحن نؤمن بوجود أفراد يرغبون في المشاركة بمثل هذا المشروع القومي الحضاري الرفيع الذي ينتهي إلى إدخالِ الوطن العربي في الحركة العلمية العالمية ومن ثَمّ إخراجه مما هو فيه من اضمحلال علمي وتقني وذلك بغية الوصول إلى إضافة رافد الحضارة العربية إلى روافد الحضارة الإنسانية.

ويترتب على هؤلاء الأفراد الشروع بالانغماس في ثقافة اللغة التي يريدون الاستفادة من إنتاجها العلمي، وهو انغماس يعتمد إتقاناً حقيقياً للغة الأجنبية المختارة وهو الذي يتيح الفرص أمام انتقال الحضارة بعناصرها الإيجابية عن طريق الترجمة والتعريب.

وتبقى مشكلة إيجاد المصطلحات العربية المقابلة للمصطلحات الأجنبية عقبةً كأداء في طريقنا إلى مواكبة العلوم الحديثة، إذ إن تلك المقابلات هي اللبِنات التي يتشكل منها البناء المعرفي

وهي الحاملة لدقائق الفهم في التعبير عن حقائق العلم.

ولذا فهناك مطلب آخر لابد من توفره في كل من يتطلع إلى المشاركة في مشروعات التعريب ألا وهو التبحُّر في اللغة العربية التي تشكّل الهيكل الحامل للعناصر المعرفية، إذ لابد من الرجوع إلى مقاييس اللغة عند صوغ المصطلحات ولابد من التأكيد على حسن الأداء النحوي في ترابط المعاني ليمكن إدخال المعاني صريحةً إلى أذهان المتلقين. إذ ليست الترجمة مجرد نقل من أداة تعبيرية إلى أداة تعبيرية أخرى بل الغرض هو مواءمة النص مع ثقافة المتلقي وهذا هو التعريب الحقيقي.

ولما كان من الندرة بمكان أن تجتمع متطلبات العمل التي ذكرنا في شخص واحد يستطيع القيام بمهمة التعريب على أفضل وجه، أو حتى في مجموعة صغيرة، كان لابد لنا من الاعتماد على معطيات التقانة الحديثة لنرتب عملاً جماعياً تتضافر الجهود فيه من أجل الإسراع في اللحاق بالحركة العلمية العالمية.

والخطوة الأولى في هذا المسار هي التأكيد على إنجاز الذخيرة اللغوية العربية، ذلك المشروع الذي يجمع الأركان الأصيلة في اللغة من جذور وأفعال وتراكيب، ليضعها في تصرف الباحثين بوساطة برنامج حاسوبي يعفيهم من عناء الرجوع إلى العديد من المعجمات. فمثل هذا الرصيد يمكن تبويبه بما يوافق المجالات العلمية للاستفادة من مصطلحات كان قد وضعها العلماء الأوائل ولم تستقر في الاستعمال وهي جاهزة لسد احتياجات التعريب الحديث، بعد تطويرها أو القياس عليها.

والأهم من ذلك حصر مجموع المصطلحات المتداولة حالياً بين العلوم المختلفة في برنامج حاسوبي بحيث يتم إنشاء شبكة حاسوبية تربط بين العاملين في كل فرع من فروع العلم الحديث، والغرض منها ترتيب قاعدة معلومات للمصطلحات العلمية المعتمدة والمقترحة في كل تخصص. أي أن العاملين يستطيعون الاستفادة من الشابكة (الإنترنت) لتبادل نتاج مجهودهم المصطلحي في العلم الذي ينتمون إليه كما يدخلون عن طريقها إلى مكنز الذخيرة اللغوية حيث يستعرضون جذور العربية ومقاييسها.

وتبقى قاعدة المعلومات التي تتكون بهذا الشكل في كل فرع من فروع العلم مفتوحة للنقاش وقابلة للتعديل باتفاق العاملين ضمن الشبكة المتخصصة، وهذا ما يسمح بالإطلاع على ما تم الاتفاق عليه وهم يستفيدون كذلك من الاسترجاع الفوري المباشر online لإنجاز بحوثهم والتأكد من صحة ما يقترحون من مصطلحات.

ومن الضروري أن ترتبط تلك الشبكات الوطنية بشبكات عالمية تغذيها بالجديد في كل علم من العلوم كي تبقى مسايرة للتطور العلمي في العالم وتسارع إلى اقتراح المقابلات العربية المناسبة لما رصدته من مصطلحات هامة في ذلك التيار العلمي المتسارع.

وحرصاً على بقاء العمل المصطلحي متناسقاً مع المتطلبات اللغوية فإنه لابد من إشراك أفراد لغويين يهتمون بالمجهود المصطلحي ليساعدوا في انتقاء المصطلح الذي يتطابق مع روح العربية ولا يخرج عن مقاييسها.

ولابد في نهاية الأمر من عرض ما اتفقت عليه الشبكات الوطنية في مجال المصطلحات على مراكز القرار في المجامع اللغوية حتى يمكن اعتبارها مقبولة ويصح استعمالها في ترجمة وتعريب نصوص العلوم الحديثة.

وإن تعميم إنشاء مثل هذه الشبكات الوطنية على مجموع الوطن العربي يجعلنا قد أحدثنا ما يمكن أن نسميه بيت الحكمة، ولكن على أساس معلوماتي، وهو بمثابة مرصد مصطلحي يقوم العمل فيه على التعاون والتساند والتكامل وتبادل الرأي والخبرة بين جميع الأقطار العربية في مجالات التعريب التي تشكل اليوم عماد تحديث مجتمعاتنا وأساس الاستفادة من حضارة القرن الواحد والعشرين.